المشرق

ذكرى وعبرة للانام في راس العام

نظر ديني ادبي للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ رأس السنة في عُرف الانام، بين خاصّ وعامّ، هو الفاصل بين عامٍ مضى، وعام دنا، هو الحاجز بين ما فات ومات فلن يعود، وبين ما اقبل وانتجل كالطفل المولود، هو الجامع بين بجرَّتين، والبرزخ بين عالَمَين، عالمٍ دخل الابديَّة، وعالمٍ خرج من اعماق الكون بتدبير العناية الصمدانيَّة

فما أحرى بالانسان ان يقف برهةً على عتبة بابهِ فيلقي بنظرهِ الى ما وراءهُ ليستفيد من ماضيهِ ذكرى ثم يوجّه الحاظهُ الى امامهِ فتكون لهُ بمراقبة مستقبلهِ عبرة

١ الذكرى

١ واوّل ما يتبادر الى ذهن الرقيب انَّ تلك السنة التي مرَّت عليه انضمَّت الى اخواتها مع ما رحل منها في سالف الدهور. فلم يبق لها من وجود في غير علم الله. وقدْ اجاد الكتاب الكريم حيث قال عنها (سفر الحكمة ٥ : ٩—١٢) انها كانت «كالظلّ وكالخبر السائر. او كالسفينة الجارية على الماء المتموّج التي بعد مرورها لا نجد اثرها ولا خطّ حيزومها في الامواج. او كالطائر يطير في الجوّ بقوادمهِ ويشقّ الهواء بشدَّة سرعتهِ ورفرفة جناحيهِ يُعبر فلا تجد لمرورهِ من علامةٍ او كسهم يُرمى الى الهدَف فيُخرّق بهِ الهواء. ولوقته يعود الى حالهِ حتى لا يُعرف ممرُّ السهم». كذلك السنة الفائتة مضت ولم يبقَ لها من اثر.

٢ وما اعظم الشوط الذي جرَّتهُ وقطعهُ الانسان معها. اثنا عشر شهرًا دارت

فيها ارضنا حول الشمس ٣٦٥ مرّةً بنيف فبلغت من الساعات ٨٧٦٦ ساعة ومن الدقائق ٥٢٥٬٩٦٠ دقيقةً ومن الثواني ٣١٬٥٥٧٬٦٠٠ ثانية كانت الواحدة كافيةً لفتح السماء للانسان لخلاصه السرمدي او للسقوط في دركات الجحيم لهلاكه الابدي ما اعظم ما كان نفعها لمن شاء وما ارهب ما كان ضررها لمن اساء.

٣ قضت تلك السنة وانما بقي للانسان ذكرى ما نالهُ من مراحم الله في مطاويه المنصرمة من النعم السابغة. فكم أمدَّهُ الربّ بخيراته لمعاشه فسدَّ كل حاجاته الجسديَّة وافاض على نفسه هباته السامية فانار عقلهُ وارشد خطواته واثبت عزائمهُ وكل ذلك مما يستوجب شكرهُ تعالى. فان كان الانسان لا ينسى فضل المنعم عليه في عالمه فكم بالحري يجب عليه عرفان الجميل نحو خالقه الذي غمرهُ بنعمه في كل برهة من حياته وهو دون معونته تعالى عاجز عن كل حركة وعمل

٤ ومع ذكر نعم الله اليه لا بدَّ ان يعود الى فكره ما جرى على يده من الاعمال إن حسنةً وان سيئةً. فهذه الاعمال ليست كبقيَّة ما مضى وقضى فلم يتخلَّف لهُ من اثر فانَّ لها تبعةً مدوَّنة في نظر الله وباقية ليوم الحساب اذ يدين الله الموتى «لأنَّ اعمالهم تابعةٌ لهم» كما قال الكتاب (رؤيا ١٤: ١٣). فما اطيب وما اشهى هذه الذكرى ان كانت اعمال الانسان صالحةً مبرورة فلن يضيع ثوابها حتى اصغرها شأناً ككاس الماء البارد المعطى باسم الربّ (متى ١٠: ٤٢). وعلى خلاف ذلك ما اشقّ وامرّ ذكرى تلك الاعمال ان لم تكن بموجب اوامر الله ومنطوق الضمير

٥ ويُضاف الى ما سبق ذكرى ما جرى في المجتمع البشري من احوال شتى منها مبهجة سارَّة في عالم الدين والدنيا أصبنا منها حظّنا المشكور ومنها فاجعة ضارَّة رُزئ بها الجنس البشري وذقنا شيئاً من مرارتها كالحروب والاوبئة وضروب البلايا. فهذه كلُّها ارسلها الله او سمح بها لخيرنا إمّا عقاباً لما فرط منّا من الشرور تنيب اليه تعالى بالتوبة النصوح. وامّا امتحاناً كما يصنع الله بعبيده تمحيصاً لفضيلتهم بنار التجربة فيزيد أجرهم يوم الجزاء.

٢ العبرة

ان كان للذكرى شأنها في نظر الانسان الى عامه السابق فانَّ في اعتباره للعام

المقبل تعاليم ليست دونها شأناً يجب عليه التروّي بها

١ والعبرة الاولى تستوجب شكراً جديداً من الانسان لخالقه . هذه سنة بلغتُها وكم من البشر مثلي كانوا يؤمّلون البلوغ اليها فلم تتحقّق آمالهم . ففي العام المنتهى مات نحو اربعين مليوناً من الناس في كل اطوار الاعمار ، اكبر واصغر مني سنّاً، اقوى واضعف مني بنيةً، ارفع واوضع مني قدراً، فان لم أُحصَ في عدادهم فتلك منّةٌ لم استحقّها باعمالي وقد نلتُها من كرم ربي فانا رهين فضله مُقيَّد نحوهُ بتأدية واجب شكره

٢ ولكن ما عسى ان تكون هذه السنة . فاننا في اوّل يوم منها يتمنّى البعض منّا للبعض الآخرين ان تكون لهم سنةً مباركة وان يبلغوا الى السنة المقبلة سالمين . وما ذلك سوى تمنيات لعلّها تصحّ او لا تصحّ على انّها تُشعرنا بحقيقة تستوجب اعتبارنا وتلك هي اننا لسنا اولياء امرنا وانّ حياتنا ومماتنا في يد مالكنا فهو القابض على مقاليدهما . فالواجب علينا ان نكرمهُ إكرام المخلوق لخالقه والعبد لسيّده

٣ فان كانت هذه السنة تحت تدبير ضابط عنان اموري وهو لم يُطلعني أأحيا فيها أم أموت أأتمتّع بها تماماً او بقسم منها فقط اذ يقدر ان يقطع حبل حياتي في كل ساعة منها وهو لم يوحِ اليَّ بساعة وفاتي فتنتج عن ذلك عبرةٌ لي ان اعيش في هذه السنة برضاهُ ولا أحاول البتّة مخالفة وصاياه لئلّا يحلّ بي ذلك الويل الذي فاه به الربّ على العبد الشرّير الساهي عن حساب سيّده بل احظى بالطوبى التي بشّر بها العبد الامين الذي يجدهُ سيّدهُ ساهراً عند قدومه (متى ٢٤ : ٤٧ — ٥١)

٤ فهبْ اني احظى في هذا العام الجديد بكلّ ما اتمنّاهُ من راحة وسلام وهناء أفلا يرشدني داعي العبرة الى امور تزول الى السعادي وتعدل بي عن محجّة الشقاء والبلايا . هي سنة فسيحة المدى طويلة الزمان . فكم يمكنني ان آتي فيها من الحسنات ا يقول المثل الانكليزي «انّ الزمان نقدٌ» فان صحّ هذا حتى في امور العالم كما نرى ذلك في ذوي الهمّة والنشاط الذين بجدّهم وعزمهم يصلحون احوالهم ويصيبون هناء العيش فكم بالحري يصحّ في امور الروح والادب فانّ الانسان أيّةً كانت حالهُ يستطيع ان يُصلح نفسه ويزينها بالفضائل والاداب ويؤهلها للسعادة الابديّة ان لم يحظَ بالسعادة الارضيّة الزائلة الكاذبة . تلك عبرة ان استفاد منها المرء أفعمت

قلبهُ طمأنينةً وسروراً لما يؤمّلهُ من الثواب يوم الحساب

٥ بل يستطيع المرء ان يستدرك ما فرط منهُ في حياته السابقة لكي لا يؤاخذ بها في يوم الدين فيكفّر عن آثامهِ وجهالاته الماضية ويوفي عنها وفاء قريباً سهلاً باعمالهِ الصالحة ليخلّص نفسهُ من تبعتها في العالم الآخر حيث العقاب غاية في الشدّة والالم حتى لو نجا الخاطئ من العذاب الابدي في دركات الجحيم. فيا لها من صفقة رابحة! يعطي الانسان القليل فيربح الكثير الوافر يدفع دريهمات زهيدة بدلاً من دَيْنه الباهظ المستوجب القصاص الطائل الاليم. نعمًا العبرة لذوي البصيرة والادراك ولو اعتبرها البشر لتسارعوا الى التشبُّث باسبابها

٦ وكما يستطيع الانسان ان يجعل ستهُ المقبلة مفيدةً لنفسهِ يمكنهُ بالاعتبار ان يفيد منها قريبهُ. قال الكتاب (ابن سيراخ ١٧: ١٢): «انَّ الله اوصى كلّ انسان بقريبهِ». ففي الزمان المعطى لهُ من جودهِ تعالى يقدر ان يتمّ تلك الوصيَّة. فهذه اعمال الرحمة منها جسديَّة كإطعام الجياع وإرواء العطاش وإكساء العُراة وعيادة المرضى وزيارة المحبوسين وايواء الغرباء. ومنها روحيَّة كتعليم الجهّال وارشاد الضالّين والمشورة الصالحة. فبهذه الاعمال وغيرها يقوم الانسان بواجباتهِ وينال الطوبى من سيّده في يوم الدين وهو يُعدّ كمُعطى لهُ كل ما أُعطي باسمهِ لاحد الصغار والمحتاجين. فهذه عبرة من شأنها ان تسترعي نظرهُ في مفتتح السنة الجديدة

٧ ثمَّ ان الانسان عضو من اعضاء الالفة البشريَّة والهيئة الاجتماعيَّة فعليهِ ان يقوم بخدمتها كما يقوم سواهُ بخدمتهِ. فما احراهُ في بدء عامهِ الجديد بواجباتهِ نحو ذاك المجموع في الحلقة الخصوصيَّة التي جُعل ضمنها والدعوة الالهيَّة التي عُهدت اليهِ لئلّا يكون في ذاك الجسم الكبير كالعضو العليل او البطّال. فهذه العبرة من شأنها ان تقوّي عزيمتهُ وان تلهمهُ بخدمات جديدة يمكنهُ ان يؤدّيها للمجتمع البشري

٨ وفي ذاك المجتمع الكبير دائرة اقرب الى المرء وهي وطنهُ الذي ربى فيهِ ونال من خيراتهِ الجمّة أفلا يحقّ عليهِ ان يصرف اليهِ نظرهُ في اوّل العام ويعتبر ما في طاقتهِ ان يقوم بهِ نحوه ليؤدي اليهِ بفرائض الشكر سواء كان بتعزيز قواهُ ام بانماء ثروتهِ وترويج مصالحهِ وبالدفاع عنهُ في وجه اعدائهِ ومناصرة ابنائهِ ومحبّيهِ. فانَّ الله بوضعهِ شخصنا في احد المواطن ربطنا بهِ باواصر القرابة واشار الينا بمحبتهِ وبهذا المعنى

يصح القول انَّ حبَّ الوطن من الايمان

هذه كلها من اسباب الاعتبار فترى انها واسعة متعددة كاسباب الذكرى فما للمرء في رأس كل سنة الّا ان يرتشد بها فيخلد في قلبهِ ذكرى الماضي ويقدّم بالنظار العبرة للمستقبل وبهما ينال سعادة الدارَين

قصر اسعد باشا العظم في دمشق

بقلم عيسى اسكندر المعلوف (مؤلف تاريخ الأسر الشرقية العام)

توطئة

في ربيع سنة ١٩٢١م قدم سورية السيو استاش دي لوري (E. de Lorey) الفرنسي من قبل المجمع العلمي ومتحف اللوفر في باريس للتنقيب عن الآثار الاسلامية في دمشق. وفي اوائل سنة ١٩٢٢م ابتاع «قصر اسعد باشا العظم» ببلغ ستين الف ليرة سورية. واتخذه مقرًّا لهُ وبدأ بترميمه وجمع بعض الآثار اليهِ وأعلن انهُ سينشئ فيهِ مدرسة لتعليم الصناعات الوطنية التي اشتهرت بها سورية عمومًا ودمشق خصوصًا وعاد مرارًا الى باريس. وفي حادثة دمشق الاخيرة منذ شهر احترق هذا القصر وزالت محاسنهُ وتشتت آثارهُ فكتبتُ فيهِ هذه المقالة لتعريفهِ مزيّنة ببعض رسومه

آل العظم

اشتهرت هذه الاسرة في تضاعيف القرن الثامن عشر في سوريّة وقد كتب عنها كثير من المؤرخين مثل ثريّا بك في «السجلّ العثماني» وجودت باشا في «تاريخه المطوّل» ونعيما في «تاريخه العثماني» وابن البرزنجي في كتابهِ «كشف الحجب والستور عمّا وقع لاهل المدينة مع امير مكّة سرور» سنة ١١٩٤هـ (١٧٨٠م). والسويدي البغدادي في «حديقة الوزراء» والبديري الحلّاق الدمشقي في تاريخه «نخبة الفضلاء». وكوجك چلبي في «تاريخهِ العثماني». والشيخ عبد الرحمن الفاسي المغربي في «تاريخه المخطوط»